

إشكالية الموضوع النظري لعلم الاجتماع الحضري من مرحلة نشوئه إلى سياق العولمة

The Problematic of Urban Sociology's Theoretical Object from its Inception to the Context of Globalization

تقي الدين بن فيفي^{*1}

¹ مخبر الدراسات في الثقافة، الشخصية، والتنمية، المركز الجامعي مرسلبي عبد الله تيبازة (الجزائر)،
benfifi.taqueddine@cu-tipaza.dz

تاريخ القبول: 2023/12/28

تاريخ الإرسال: 2023/07/09

ملخص:

تشير الأدبيات ضمن علم الاجتماع الحضري إلى أن هذا التخصص قد مر بأزمة إبستمولوجية وأنطولوجية. يعود هذا إلى عاملين أساسيين تمثلا في: تشتت مواضيع هذا التخصص من جهة، وبروز العولمة من جهة أخرى. تسعى هذه الدراسة إلى إبراز المسار المعرفي الذي اتسم به موضوع هذا العلم ابتداء من تاريخ نشوئه كتخصص فريد يهدف إلى إثبات ذاته من خلال نظرياته إلى سياق العولمة. تتميز هذه الدراسة بمتابعتها لمختلف النظريات وتحليلها نقديا من زوايا مختلفة، ثم محاولة نحو إعادة صياغة موضوع نظري لعلم الاجتماع الحضري وإبراز قيمته المعرفية والعملية ضمن مقتضيات الزمن الراهن. تخلص الدراسة إلى ضرورة فتح المجال للتنظير بشكل أوسع من أجل الحفاظ على هوية علم الاجتماع الحضري أمام تعددية التخصصات.

كلمات مفتاحية: علم الاجتماع الحضري؛ الموضوع النظري؛ تعددية التخصصات؛ العولمة.

Abstract

The literature within urban sociology indicates that this discipline has gone through an epistemological and ontological crisis. This is due to: the dispersion of its topics, and the rise of globalization. This study highlights the path that characterized the object of this discipline, from its birth as a unique discipline that aims to prove itself through its theories to the context of globalization. This study follow-up various theories and their critical analysis from different angles, to reformulate a theoretical object of urban sociology and highlighting its value within the requirements of the current time. The study concludes that it is necessary to open the way for more theories to preserve the identity of urban sociology in the face of multidisciplinary.

Keywords: Urban Sociology; Theoretical Object; Interdisciplinary; Globalization.

* المؤلف المرسل.

إن المطلع على علم الاجتماع الحضري يجده يرتسم من خلال سمتين: أولاً: في صعوبة العثور على هوية محددة ومستقرة للتعريف بنفسه من خلالها. ثانياً: تداخله مع التخصصات الأخرى. وباعتبار أن التاريخ النظري لعلم الاجتماع الحضري هو تاريخ البحث عن موضوع نظري اجتماعي (ماذا يدرس؟) يتوافق والموضوع المادي للمدينة فقد كان تاريخ تخصص يبحث عن سبب منطقي لوجوده كما يصرح بيتر سندرز Peter Sanders (Saunders, 1986, p. 171). هذا السبب المنطقي هو ما يجعله يختلف عن علم اجتماع التنظيم، وعلم اجتماع الانحراف، وعلم اجتماع العائلة، وغير ذلك. بل إن هذا الموضوع النظري كان الشغل الشاغل الذي أرق علماء الاجتماع الحضريين ساعين لإثبات جدوى البحث ضمن هذا التخصص، فعلم الاجتماع الحضري ليس علم اجتماع "كل شيء يحدث في المدينة" (Grafmeyer & Authier, 2015, p. 01)، وهو خطأ متداول، رغم تأكيد أرنست مانهايم Ernest Manheim لهذا، إذ ليست كل الأبحاث التي تقع موضوعاتها في الفضاء الحضري تشكل علم اجتماع حضري (Manheim, 1960, p. 226). بعبارة أخرى، إذا كان موضوع الدراسة هو المدينة، فسيتعين افتراض وجود ممارسات اجتماعية معينة يتم ملاحظتها فقط في المدينة مشكلة في نهاية المطاف موضوعاً تتفرد به.

في ظل هذا، تتضمن المقالة العناصر التالية:

1-1- إشكالية الدراسة

يمكن الحديث في إشكاليتنا عن مفارقتين:

الأولى: كما يجادل مانويل كاستلز Manuel Castells، هي أن تباطؤ إنتاج علم الاجتماع الحضري يرجع إلى التشتت التدريجي لموضوعه المركزي، المُقسَّم إلى موضوعات جزئية متعددة، ومختلفة تماماً عن بعضها البعض (Castells, 2006, p. 17). ولهذا السبب بالتحديد نلاحظ الفصل بين علم الاجتماع الحضري ومعالجة المشاكل الحضرية. إن هذا التجزئ الذي حصل لعلم الاجتماع الحضري والانحصار في دراسة جوانب الحياة الحضرية المنفصلة: الإسكان والتعليم والجريمة والعرق والثقافة وما إلى ذلك هو ما جعل عالمة الاجتماع روث غلاس Ruth Glass ترى بأنه "لا يوجد موضوع (مثل علم الاجتماع الحضري) له هوية مميزة خاصة به" (Glass, 1955, pp. 05-07) بمعنى أن المدينة مجرد مظلة ندرس تحتها كل الظواهر الاجتماعية.

الثانية: هي "مفارقة العصر الحالي" على حد تعبير مارسيل رونكايبولو Marcel Roncayolo (Grafmeyer & Authier, 2015, p. 126)، لاسيما مع التطور والتقدم اللذين ميزا عالمنا اليوم، بحيث تلاشت الحدود بين المدن وبين الدول نفسها، وأصبحنا في عالم معولم من غير تخوم تحدد مبدأه ومنتهاه، وأصبحت بذلك المدينة

تابعة لنظام عالمي وثقافة عالمية موحدة. هذا بالضبط ما أكده دون مارتندال Don Martindale عندما ربط اختفاء المدينة كوحدة اجتماعية مستقلة باختفاء علم الاجتماع الحضري كجسم نظري. (Martindale, 1958, p. 62).

في ظل هذا الطرح، وضمن السياق المعاصر الذي نعيش فيه، يمكن صياغة إشكالنا عبر التساؤلات التالية:

- كيف تم تقييم الموضوع النظري لعلم الاجتماع الحضري من طرف السوسيولوجيين؟
- كيف يمكن فهم علم الاجتماع الحضري في سياق العولمة؟
- كيف يمكن إعادة بناء الموضوع النظري لعلم الاجتماع الحضري؟
- ما جدوى وقيمة علم الاجتماع الحضري اليوم؟

2-1- أهداف الدراسة

يعيد هذا المقال النظر في علم الاجتماع الحضري الذي يتم اعتباره علما ليس له أساس يقوم عليه. لذلك، نجد أنه من الضروري تحديد ما يميز هذا المجال التخصصي من أجل تحديد مساهمته في مقارنة الظواهر الحضرية.

3-1- المنهجية المتبعة في الدراسة

اعتمدنا في هذه الدراسة المنهج التحليلي النقدي، من أجل تحقيق الغرض من دراستنا، أي عرض المقاربات وتحليلها نقديا للوقوف على سيرورة وصبورة مختلف النظريات والاتجاهات والمداخل المتعلقة بعلم الاجتماع الحضري، التي حاولت افتكاك موضوع نظري خاص به.

2- أهم المقاربات النظرية في تحليل المدينة

انطلاقا من افتراض ومسلمة في السوسيولوجيا، أنه ومنذ فترة ما بعد الحرب، كان لعلم الاجتماع الحضري ثلاث مراحل (Mellor, 2007, p. viii):

- المرحلة الأولى: استمرار تقاليد تجريبية فابيان والاهتمام بالأنثروبولوجيا الاجتماعية.
- المرحلة الثانية: في منتصف الستينيات، من خلال السوسيولوجيا الأمريكية.
- المرحلة الثالثة: اللجوء إلى الماركسية لملء الفراغ النظري.

لكن مع ظهور العولمة فقد كانت عاملا حاسما في فهم الظواهر الاجتماعية فهي مرحلة تالية لهذه المراحل. من خلال التوليف والتوفيق بين المقاربات المختلفة وهذه المراحل سنتطرق إلى أهم المقاربات التي سنجعلها كمحاولات لإيجاد موضوع نظري للمدينة وتجب عن جوهر إشكاليتنا، وأهم الانتقادات التي يمكن أن توجه لها، وهي كالتالي:

2-1- المقاربات الكلاسيكية لدراسة المدينة

غالبًا، حين يتم تتبع جذور علم الاجتماع الحديث فإنه يتم الرجوع إلى ثلاثة منظرين بارزين: كارل ماركس Karl Marx، وماكس فيبر Max Weber، وإميل دوركايم Emile Durkheim، وجميعهم (باستثناء فيبر جزئيًا) كانوا غير مهتمين نسبيًا بالظواهر الحضرية في ذاتها. كان هؤلاء الثلاثة منشغلين بتحليل الخصائص الرئيسية الأخرى للمجتمعات الصناعية الجديدة في القرن التاسع عشر (Savage & Warde, 1993, p. 08)، ونضيف هنا فرديناند تونيز Ferdinand Tonnies وجورج زيمل Georg Simmel، فكثير من مفاهيم علم الاجتماع الحضري ونظرياته ترجع إلى تأثيرهما أيضًا. إن هؤلاء، رغم أننا نجد في تراثهم السوسيولوجي معالجة مهمة للمدينة، بأدواتهم المنهجية المعروفة، إلا أن هدفهم من دراسة المدينة لم يكن مرادًا بالذات وإنما كان مرادًا بالتبع. بعبارة أخرى، تمت دراسة المدينة في سياق توضيح وتحليل المجتمعات الصناعية باتجاهاتها الأكثر تطورًا والتي رافقت ظهور الرأسمالية.

إن المدينة الصناعية لدى كل من ماركس ودوركايم وتونيز وفيبر، لا تتمتع بمظهر اجتماعي مستقل ولكنها تشكل الخلفية النهائية التي تميز التغييرات الرئيسية في المجتمع المعاصر (Mingione, 1986, p. 138). بهذا، يمكن القول إن المدينة كانت مصاحبة للنظام الاجتماعي ككل، ولهذا، لن يكون من المفيد دراسة المدينة بمفردها. بعبارة أخرى، فإن المدينة تشكل جزءًا من نسق كلي عام للمجتمع، وطالما أنها كذلك فينبغي دراستها ضمن هذا النسق الكلي العام، لذلك، لم يكن من الضروري وضع نظرية للمدينة ودراسة المدن نفسها، وهذا المعنى ليس من الممكن بعدُ التحدث عن وجود علم الاجتماع الحضري على هذا النحو باعتباره تخصصًا يتفرع عن علم الاجتماع العام. مع ذلك، لن يكون من الصواب أو الإنصاف تمامًا القول إن هؤلاء لم يمارسوا علم الاجتماع الحضري، نظرًا لأن جميع هؤلاء المؤلفين درسوا الظواهر والعمليات التي ستكون لاحقًا مركزية في هذا التخصص.

إذا، هؤلاء المؤلفين لا يعترفون بالمدينة كموضوع للدراسة في حد ذاته. لأن الفضاء الحضري بالنسبة لهم هو متغير تابع، ومجرد انعكاس لأليات اجتماعية أخرى. كما لم يتم إعطاء أي أولوية للتحليل أو أهمية للوحدات المكانية ذات الأهمية الاجتماعية.

يمكن عزو عدم دراسة كل من ماركس وفيبر وتونيز ودوركايم المدينة في حد ذاتها إلى أنهم ينظرون إليها كجزء من عملية تاريخية عامة. لهذا، لم يكن علم الاجتماع الحضري ضروريًا لأن عملية التحديث ستقود في نهاية المطاف، إلى التحضر الكلي (التصنيع / التحديث، ... للكوكب. ومن هذه الفرضية ينشأ حتما الانقسام الريفي / الحضري المعروف. وزوال الريف من جهته يعود إلى عدم تماشيه مع فلسفة الحداثة.

من ناحية أخرى، تعامل زيمل (1903) مع مشكلة "كيفية تشكل الحياة الروحية أو العقلية للأفراد من خلال التأثيرات الهيكلية للمدينة" (Cohen, 1990, p. 226). بمصطلحات تقنية أكثر لعلم الاجتماع الحديث، يمكن للمرء أن يقول إن زيمل يعامل "المدينة" بعناصرها ومخرجاتها (الحجم وتقسيم العمل والمال / العقلانية) على أنها متغير مستقل، أو عامل سببي، وما يعتبر "داخلي" لمواطنيها على أنه المتغير التابع، أي "الشخصية الحضرية". مع ذلك، وبشيء مما يعتبر مفارقة، فبالنسبة له، لم يكن المقصود من دراسة الحياة داخل المدينة أن يكون تأسيساً لـ "علم اجتماع حضري" (Gottdiener & Hutchison, 2011, p. 52). مع أنه يُعتبر أهم تأثير منفرد على نظريات روبرت بارك الاجتماعية. مع ذلك كانت المدينة هنا موضوع دراسة مستقل وليس مجرد انعكاساً للعمليات العامة كما رأينا عند ماركس وتونيز ودوركايم وفيبر.

إن زيمل يعزو الكثير من أسلوب الحياة في المدينة إلى تأثير القوى النظامية الأكبر وهي الرأسمالية واقتصادها النقدي. إن هذا ما يجعلنا نعود لإشكالنا، حيث أن زيمل أثناء معالجته للمدينة - عدا متغير الحجم - لا يتعامل مع ما هو مكوّن للمدينة، رغم ادعائه أن المدينة نفسها هي مصدر لبعض سمات الحياة الحديثة، بعبارة أخرى، إن زيمل يركز على القوى التي لها أصول خارج المدينة. وما يؤكد لنا هذا، هو نقطة انطلاقه، إذ لم تكن نقطة المدينة والحياة الحضرية في حد ذاتها، ولكن ثقافة الحداثة. وتركيزه على المدينة كان عرضياً لأن التحضر كان في نظره التجربة الأساسية للحداثة.

تظهر أهمية زيمل في أثره الواضح على علماء الاجتماع اللاحقين، من خلال التراث السوسيولوجي العميق حول المدينة لاسيما الكثافة السكانية كعامل مسبب لأساليب الحياة الحضرية، وستكون أحد أحجار الزاوية في الإيكولوجيا البشرية عند لويس ويرث وروبرت بارك.

2-2- المقاربات الحديثة في دراسة المدينة

2-2-1- المقاربة الإيكولوجية

إذا كانت مسلمة روبرت بارك Robert Park بأن العلم محدد بما ينجزه بدلا من أي تعريف مسبق لمجاله (Hawley 1950, p. 10)، فإنه بالرجوع إلى كتابات رودريغ ماكينزي Roderick Mackenzie نجده يشير بوضوح إلى "أن البنية المادية والخصائص الثقافية في المجتمع هي جزء من مجتمع واحد. فالعلاقات المكانية التي ينتظم فيها البشر هي دائماً في عملية تغيير استجابة لعمل مجموعة من القوى الإيكولوجية والثقافية". (Gross & Maut, 2015, p. 20) ثم يبرز هدف الإيكولوجيا بقوله: "إن مهمة عالم الإيكولوجيا البشرية هي دراسة عمليات التغيير هذه من أجل التأكد من مبادئ عملها وطبيعة القوى المنتجة لها" (Karp & al, 2015, p. 59). إذا، الأمر الذي يحدد هذا العلم هو دراسة عمليات التغيير في العلاقات المكانية التي يستوطن فيها البشر والتي هي

نتاج التأثير بمجموعة من القوى (التنافس، التكيف...). من جهة أخرى، فإن المنظور الإيكولوجي يسعى إلى شرح كيفية تكيف السكان بشكل جماعي ودون وعي مع بيئتهم. مع هذا، يعبر روبرت بارك عن عدم نيته سواء هو أم الإيكولوجيون الأوائل في بناء نظرية "التكامل"، أي تم التنظير للنظام الحضري من حيث القوى الحيوية التي تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعي والنظامي (Saunders, 1986, p. 118). رغم ذلك، تظهر هنا البوادر لأولى محاولة من أجل إيجاد موضوع نظري لعلم الاجتماع الحضري.

يجادل بارك بأن هناك فرق بين مظهرين مختلفين للمجتمع، يدل عليهما التنافس "النظام الطبيعي"، والإجماع "النظام الأخلاقي". من الأول ينشأ المجتمع الحيوي، ومن الثاني، المجتمع الثقافي كما يتضح من خلال التقاليد والمثل العليا. كان الهدف من هذا التفريق هو جعل المبادئ الإيكولوجية ذات صلة بدراسة المجتمع البشري (Hutchison, 2010, p. 362). إلا أن بارك في عمله اللاحق، تخلى عن المستوى الثقافي، وركز على المستوى الحيوي وحده باعتباره الفرضية الأساسية للإيكولوجيا الحضرية (Gottdiener & Hutchison, 2011, p. 61).

أدت هذه الصياغة إلى انتقادات جمة لاسيما من طرف أيسا ألهمان Aissa Alihan. بحسبها، فإن الإيكولوجيين لا يعرفون الفرق الأساسي بين الواقع والتجريد؛ كما لا يمتلكون فهما واضحا أو كاملا للمفاهيم التي يستخدمونها؛ ولا اتساق في استخدامها؛ بالإضافة إلى أن هذه المفاهيم لا تكشف عن العلاقة بين العمليات التي يصفونها و "المجتمع المحلي" الكيان. والنتيجة هي قبول مؤقت للدراسات الامبريقية، ولكن رفضاً للنظرية والمفاهيم، لأنه في حين لا تتطابق بين النظرية والواقع "فلا يوجد علم" (Hollingshead, 1941, p. 907). على هذا، لا يوجد ثبات منهجي حول كون المجتمع المحلي كائنا مرثيا ملموسا والمجتمع المحلي كهيكل تحليلي أو أداة إرشادية للتحليل، إذ أن ما هو تجريد بالنسبة لهم في وقت ما يصبح حقيقة واقعة في وقت آخر. ما تشير إليه ألهمان هنا أكده موريس هوالفاكس Maurice Halbwachs حين رأى أن دراسات الإيكولوجيين بمدرسة شيكاغو فشلت في أن تكون مبنية على أساس نظري، رغم ما أعجب به من جرأة وابتكار وشغف، إلا أن هذه الأخيرة لا تولد معرفة. بالإضافة إلى فشل صياغة الفرضيات واختبارها، وعدم القدرة على تجاوز وصف خصوصيات شيكاغو (J. Blasi, 2005, pp. 231-232).

نتيجة لما سبق، انقسم الإيكولوجيون إلى فئتين، الأولى اعتمدت على المنهجية الوضعية التي تقوم على ما يمكن ملاحظته في الواقع الفيزيقي أما الثانية احتفظت بالمجتمع المحلي الإيكولوجي كتجريد. في الواقع، وكما يؤكد سندرز، لا يمكن وصف أي منهما بأنه "إيكولوجي"، لأنه بينما تبحث الأولى في الديموغرافيا (البيانات الرقمية)، يبدو أن الثانية مختلفة قليلاً عن الأنثروبولوجيا الثقافية

(دراسات الحالة غير القابلة للمقارنة). وفي كليهما، اختلفت الخصوصية النظرية للمدينة (Saunders, 1986, p. 43).

بالنسبة للكثيرين فلقد فشل النموذج الإيكولوجي في توفير نموذج تنبؤي عام، لأنه استند إلى فرضية أن المنافسة الاقتصادية على الفضاء ستحدد في النهاية الاستخدام الذي يتم وضع منطقة ما من أجله، فلم يأخذوا في الاعتبار قدرة الحكومة على التأثير على الأنماط من خلال آليات التخطيط. علاوة على ذلك، فشلوا في النظر في الدور المحتمل للمشاعر والتفاعلات والثقافة، مثل تفضيل الحفاظ على المواقع التاريخية أو المناطق المفتوحة كما يجادل والتر فيري (Walter Firey, 1948, p. 234)، لذلك يقول مارتندال أن الإيكولوجيا بدأت التحليل على المسار الخطأ من خلال توجيهه إلى الجوانب الجيو-فيزيائية للمدينة بدلاً من الحياة الاجتماعية، وهذا كمن يدرس مسرح الجريمة ويترك المجرم (Martindale, 1958, p. 29).

2-2-2-الاتجاهات الأيكولوجية المحدثة

بناء على الانتقادات السابقة، تحول الاهتمام إلى علاقة السكان بالبيئة؛ وطبيعة التفاعلات بين المجموعات السكانية الفرعية، أو الأنواع؛ حول هياكل العلاقات التي تنشأ من تلك التفاعلات؛ وحول عملية التنمية. بذلك ظهر الاتجاه المحدث سعياً منه إلى تصحيح الاتجاه الكلاسيكي، من خلال أعمال كل من جيمس كوين (James Quinn) وأموس هاولي (Amos Hawley) وشنور (L. Schnorr) وأوتيس دونكان (Otis D. Duncan) وأشرف شفكي (Ashraf Shafki) ومارلين وليام (Marilyn William) وغيرهم. هذا تطورت الإيكولوجيا البشرية على طول مسارين مميزين. تعامل الأول مع شكل وتطور التنظيم الحضري، والثاني مع كيفية تطور النظم الاجتماعية البشرية من أي نوع في بيئات إيكولوجية مختلفة (Hawley, 1981, p. 423). وبناء على ذلك، تحول تركيز الإيكولوجيا البشرية إلى الاهتمام بالطرق التي ينظم بها السكان من أجل الحفاظ على أنفسهم في بيئات معينة، وبالتالي إحالة التحليل المكاني إلى مكانة ثانوية.

إلا أن هذا المسار الثاني اختلفت المتغيرات التي اعتمد عليها في تحليلاته، فبينما اهتم كوين وهاولي (1950) بحجم السكان والبيئة أو الموارد وتنظيم السكان، اهتم شنور ودونكان (1959) كممثلين للاتجاه السوسيو إيكولوجي بالسكان والتنظيم والبيئة والتكنولوجيا، ويبقى التنظيم متغيراً تابعاً متأثراً بالمتغيرات الأخرى الثلاث، واعتبرا أن النظام البيئي "مركب إيكولوجي" مترابط وظيفياً (Duncan & Schnore, 1959, p. 136). بذلك، يعزو كل من هاولي وشنور ودونكان مصدر تغيير النسق للظروف البيئية الخارجية أو للتوسع الداخلي للإنتاجية، يؤكد دونكان أيضاً على أهمية التغيرات البيئية والتكنولوجية في تطور "المجمع الإيكولوجي" ككل. تؤدي التغيرات في هذين العاملين (البيئة والتكنولوجيا)، جنباً إلى جنب مع التغيرات المرتبطة بحجم السكان والقدرة التنظيمية، إلى توسع النسق ككل (Saunders, 1986, p. 49). إلا أن كاستلز يؤكد بأن هذا "المركب

الإيكولوجي" ليس موضوعًا نظريًا، ولكنه نظرية عامة للبنية الاجتماعية ككل (Castells, 1976, p. 151).

من جهة أخرى طور شيفكي وويليام (1949) وبيل (1953) ولاحقًا شيفكي وبيل (1955)، بالاعتماد على النماذج الإيكولوجية التي طورها إرنست بورغيس Ernest Burgess (1925) وهومر هويت Homer Hoyt (1939) وهاريس وأولمان Harris and Ullman (1945)، ما يسمى بتحليل المنطقة الاجتماعية بإنشاء نظام لتحليل المنطقة الاجتماعية باستخدام إجراءات التصنيف متعددة المتغيرات (المكانة الاجتماعية والوضعية العائلية والحالة العرقية) يقترح دونكان وهاولي أن هذا التصنيف ليس له إطار مرجعي جغرافي ضروري، كما شككا فيما إذا كان الأساس المنطقي لتحليل المنطقة الاجتماعية يوفر أساسًا نظريًا مرضيًا لوصف التمايز الاجتماعي في المناطق المحددة جغرافيًا (Herbert, 1967, p. 43).

يقترح دونكان وشنور أن المنظور الإيكولوجي يمكن تطبيقه بشكل مثمر على دراسة أي ظاهرة تجمعية، ويستشهدان كأمثلة بتحليل البيروقراطية والتقسيم الطبقي وكذلك التحضر (Duncan & Schnore, 1959, p. 138). يقترح سنדרز أن الخلاف بين علماء الاجتماع الحضري بمدرسة شيكاغو أنتج التوتر بين الإيكولوجية البشرية كنظرية للمدينة والإيكولوجيا البشرية كنظرية للتكيف، لأنه لم يكن هناك سبب يجعل الهدف النظري للعمليات الحيوية للتكامل والتكيف يقتصر على تحليل المدينة (Saunders, 1986, p. 118). بعبارة أخرى، فإن هذه العمليات سواء كانت منافسة أو تكيفية أو ارتباطية فهي لا تقتصر على المدينة بل هي متعلقة بالمجتمع ككل. أي القوى والعمليات التي تعمل دائمًا في جميع المجتمعات البشرية. (Saunders, 1986, p. 50)

بالإضافة إلى هذه الانتقادات، نجد مارتندال يقول إن مكن الصعوبة في المفاهيم الإيكولوجية أنه بإمكانها تمثيل الحياة الريفية والحياة المدنية على حد سواء، كما يمكن أن تنطبق على الحياة الاجتماعية في الماضي أو الحاضر، ويمكن أن تنطبق على الحياة الحيوانية وكذلك على حياة الإنسان أو الحياة النباتية (Martindale, 1958, p. 29). من جهة أخرى، يمكن القول إنه بمجرد أن أصبح تحضر المجتمع الأمريكي شبه كلي، فإن فكرة اعتبار المدينة "متغيرًا مستقلًا" لم تعد منطقية (D Boy, 2021, p. 04). لهذا، كما سنجد لاحقًا، يذكر ويرث بالفعل أن التحضر كأسلوب حياة لم يكن مقصورًا على المدن في مقالاته الرائدة.

إذا، ووفقًا لهذه الانتقادات، فقد فشلت نظريات مثل الإيكولوجيا البشرية في تطوير وسيلة لربط موضوع دراستها الحقيقي (الحضرية، والمدينة) بنظرياتها العامة حول التكيف، لذلك بحسب كاستلز أدت إلى تأثيرات أيديولوجية، لأنها تجعل من العمليات الاجتماعية داخل النظام الرأسمالي مساوية لتلك التأثيرات المحددة للعمليات الحضرية. مع ذلك فإن روبرت بارك نفسه، لم يدع أن المدينة هي بنفسها الموضوع النظري لعلم الاجتماع الحضري، يؤكد هذا قوله: "هذه الحقيقة ...

تجعل من المدينة مختبراً أو عيادة يمكن فيها دراسة الطبيعة البشرية والعمليات الاجتماعية بشكل جيد ومثمر" (Park & Burgess , 1967, p. 46).

في نهاية المطاف، يمكن القول إن مكن تميز المقاربة الإيكولوجية هو في تأكيدها على مشكلة كيفية تكيف المجموعات البشرية مع الظروف المتغيرة، مع قطع النظر عن هذه الظروف، ولا يوجد شيء "حضري" على وجه التحديد حول ذلك. وأن الاختلافات داخل هذه الاتجاهات يكمن في نوع السؤال الذي يعالجه كل منها. هذا ما دفع موريس جانوفيتز Moriss Janowitz إلى القول عن علماء اجتماع مدرسة شيكاغو أنهم "قد اختلفوا جميعاً دون أن يكون لهم تاريخ فكري وسوسولوجي مناسب" (J. David & L. Smith, 1980, p. 154).

2-2-3- لويس ويرث والثقافة الحضرية:

يُعد مقال لويس ويرث Louis Wirth "الحضرية كأسلوب حياة"، الذي نُشر سنة 1938، بياناً موجزاً يشكل أساساً للبحث الإيكولوجي. وهو المحاولة الثانية لإيجاد موضوع نظري خاص بالمدينة. رغم أنه يشير إلى أن الإيكولوجيا ليست بديلاً عن الأطر المرجعية الأخرى وطرق البحث الاجتماعية، ولكنها متممة لها (Wirth, 1945, p. 488). طور ويرث من خلال هذا المقال تعريفاً للمدينة: "مستوطنة كبيرة نسبياً وكثيفة ودائمة لأفراد غير متجانسين اجتماعياً" (Wirth, 1938, p. 08). من الواضح أن هذا التعريف إيكولوجي بمعنى أنه يحاول تحديد الآثار المترتبة لمجموعة معينة من الظروف الإيكولوجية المكانية على التنظيم الاجتماعي والثقافة لمجموع من السكان.

يُظهر لنا تحليل لويس ويرث مدى تأثيره بعلم اجتماع الحداثة عند زيمل، وتحليل دوركايم للمجتمع، وكذا مفاهيم تونيز حول الانتقال من المجتمع ما قبل الصناعي إلى المجتمع الصناعي. لكن بالنظر إلى عمل زيمل، فإن ويرث لا يقترح سببية اقتصادية بحتة، ولا سببية نفسية أو فلسفية، ولهذا السبب يرفض العناصر التي ركز عليها زيمل والتي لها علاقة بالاقتصاد وعلم النفس أو الفلسفة، بل كان يهدف إلى الأخذ بعين الاعتبار العمليات الاجتماعية بشكل صارم وفي سياق البيئة الإيكولوجية التي تحدث فيها، أي المدينة. لهذا السبب، يعترم ويرث التحقيق في الآثار الاجتماعية للبعد العددي في أشكال الارتباط البشري التي تحدث في المدينة. اقتراح ويرث يلمح إلى دور الفضاء الذي شكله البعد الاجتماعي الديموغرافي من خلال متغير الحجم في تكوين بعض السلوكيات الاجتماعية.

ورغم الأهمية البالغة لمقال ويرث، ظهرت مجموعة من التشكيكات في تشخيص ويرث للمدينة من حيث (Pahl, 1968, pp. 98-99):

أولاً: عدم القابلية للتعميم على المنطقة الحضرية بأكملها. إذ أن التعميم يتعدى المنطقة الحضرية إلى المناطق الحضرية في العالم، لا سيما مدن العالم الثالث، على سبيل المثال، في المدينة

الغربية ستكون التجربة الحضرية بالتأكيد مختلفة تمامًا عن التجربة في مدينة مثل الجزائر أو أمريكا الجنوبية أو الهند. هذا، بالتحديد، ما دفع ريتشارد ديوي Richard Dewey يرى أن ويرث كان بصدد تعريف الحياة في أمريكا الحضرية عام 1938 وليس "الحضرية كأسلوب حياة" بشكل عام (Dewey, 1960, p. 63). لذلك يعتقد هربرت غانز Herbert Gans أن إعادة تحليل استنتاجات ويرث من هذا المنظور تشير إلى أن توصيفه لطريقة الحياة الحضرية ينطبق فقط على سكان المدينة الداخلية. إذ يتبع سكان المدن الباقون ، وكذلك معظم سكان الضواحي ، أسلوبًا مختلفًا للحياة، والذي يطلق عليه "شبه أولي" (Pahl, 1968, p. 97). فالعلاقات الاجتماعية في المدينة الخارجية وضواحيها توضح أن طرق الحياة في هذه المناطق، وإن لم تكن حميمية تمامًا، مع ذلك فهي ليست مجهولة وغير شخصية بشكل كلي كما يجادل ويرث.

ثانياً: عدم وجود ما يكفي من الأدلة لإثبات -أن الحجم والكثافة وعدم التجانس تؤدي إلى النتائج الاجتماعية التي اقترحها ويرث. وهنا يؤكد غانز على أن وصف ويرث لطريقة الحياة الحضرية يتناسب بشكل أفضل مع المناطق المؤقتة في المدينة الداخلية. بمعنى أن عدم الاستقرار السكني أو الوقتية هو ما يؤدي إلى ظهور العديد من الخصائص التي يصفها ويرث.

ثالثاً: حتى لو أمكن التحقق من العلاقة السببية، يمكن إثبات أن نسبة كبيرة من سكان المدينة كانوا معزولين عن هذه العواقب بسبب الهياكل الاجتماعية والأنماط الثقافية التي جلبوها إلى المدينة، أو طوروها من خلال العيش فيها. وهذه النقطة بالتحديد هي الانتقاد الأكثر أهمية عند غانز (Pahl, 1968, p. 99).

تشير الحجة الثالثة من تحليل غانز إلى التقليل من أهمية متغيرات ويرث، طالما أن هناك العديد من الفئات في المدينة التي تحتفظ بطابعها ونمط وأسلوب حياتها في المدينة، وكلما كان الاختيار متاحاً للأفراد أصبحت متغيرات ويرث من غير فائدة. وترتبط هذه الحجة بالحجة الثانية، فعلى سبيل المثال يميل العزاب والمتزوجون من غير أبناء إلى الانفصال عن الحي والتنقل والسكن الوقتي نظراً لدورة حياتهم والحرية التي يتمتعون بها، ونظراً للطابع الوقتي فإنهم يجعلون علاقاتهم عابرة وسطحية. وحتى ذو الطبقة العليا، فإنهم يميلون إلى الانتقال السكني وتكون النتيجة نفسها. يخلص غانز على هذا إلى إنه إذا كانت أساليب الحياة لا تتوافق مع أنواع التوطن، وإذا كانت هذه الأنواع هي وظائف الطبقة ومرحلة دورة الحياة بدلاً من السمات الإيكولوجية للمستوطنة، فلا يمكن صياغة تعريف اجتماعي للمدينة (Pahl, 1968, pp. 114-115). بهذا تظهر لنا أن مفاهيم المناطق الحضرية والريفية قليلة القيمة كأطر تحليلية.

من جهة أخرى، حدد ريتشارد ديوي بعض الانتقادات التي وجهها علماء الاجتماع لاتجاه ويرث (Dewey, 1960, p. 62)، مثل ألبرت ريس (Albert J. Reiss)، الذي يقترح أنه من الناحية التجريبية يمكن أن تستقل الحضرية عن الحجم والكثافة، وبالتالي ليست دائما شروطا لأسلوب حياة حضري في أي مجتمع معين. بالإضافة إلى نقد دونكان، الذي شكك في الارتباط بين الحجم والدخل والفئات العمرية وتنقل السكان، والتعليم، وحجم الأسرة، والعاملون من ذوي الياقات البيضاء. كما شكك أوسكار لويس (Oscar Louis)، أيضاً في وجود أي معايير للتمييز عالميا بين البيئات الريفية والحضرية. ومن جهته انتقد تشالزستيوارت (Charles Stewart) الطابع الشخصي لتعريف المدينة والحضرية، لأنها تطبق نفس قواعد الأرقام على البلدان المتقدمة والمتخلفة. كما يلتزم هوراس مينر (Horace Miner) بوجهة النظر الأكثر تقليدية القائلة بوجود تطبيق نفس القواعد على جميع الثقافات بمعنى تجريد فئات من الظواهر الحضرية التي تنطبق على جميع الثقافات.

وكما يلاحظ راي هتشينسون (Ray Hutchison). فإن تعريف ويرث للمدينة ليس تعريفا للمدينة في حد ذاتها ولكنه بالأحرى يعمل كوسيلة للتمييز بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية (Hutchison, 2010, p. 242). ورغم أن ويرث قد أوضح بصريح العبارة أنه من المهم بشكل خاص ألقت الانتباه إلى خطر الخلط بين التمدن والتصنيع والرأسمالية الحديثة (Wirth, 1938, p. 07) إلا أن غانز يجادل بأن مقال ويرث يتعامل مع المجتمع الصناعي الحضري، وليس مع المدينة (Pahl, 1968, p. 96). لذلك يقول كاستلز إن علم الاجتماع الحضري هو ببساطة علم اجتماع المجتمع "الحديث"، المجتمع الجماهيري (Castells, 1969, p. 182).

كتبت أيدا توميه (Aida Tomeh) إن إحدى الانتقادات الرئيسية لـ "ويرث وآخرين في مدرسة شيكاغو هي أنهم بالغوا في درجة العلمنة والفوضى التي يفترض أنها تميز المجتمعات الحضرية". في حين كشفت الأبحاث عن "روابط قرابة وجوار قوية في تلك المناطق من المدينة حيث يُفترض في كثير من الأحيان أن هذه العلاقات ضعيفة للغاية" (Tomeh, 1967, p. 85).

من خلال الانتقادات أعلاه، يمكن القول إن أي محاولة لتحليل المدينة من خلال متغيرات ويرث على سبيل الحصر لا يجعلنا إزاء نظرية حضرية بل نظرية اجتماعية يتم فيها أخذ العوامل المكانية بعين الاعتبار كأحد المتغيرات المتعددة، بمعنى أن الاختزالية التي ضمنها ويرث في مقاله جعلته يعزل كل المتغيرات الأخرى التي يمكن أن يكون لها تأثيرات أعمق. ونجد أنفسنا نتفق مع ديوي حين قال عن متغيرات ويرث أنها "حقيقية ولكنها غير مهمة نسبياً".

3-المقاربات الجديدة بين المحافظة والراديكالية

3-1-جون ركس وروبرت مور والفيبرية الجديدة

كمحاولة ثالثة، يعكس هذا الاتجاه المحافظ في دراسة المدينة الأفكار الفيبرية جنباً إلى جنب مع الأفكار الإيكولوجية الكلاسيكية. بعبارة أخرى، يستخدم ركس Rex ومور Moore الأفكار المكتسبة في البحث كأساس لتفسير جديد تماماً للعلاقات العرقية في المدينة الداخلية، وتفسيرا أكثر تحديدا للعزل الحضري في برمنغهام. إن حقيقة أن هؤلاء الباحثين، في ظل تلك الظروف، تمكنوا من جمع عينة مناسبة وتحقيق معدل استجابة مُرضٍ كما يقول جوردون مارشال Gordon Marshall، يمثل شيئاً من المعجزة المنهجية (Marshall, 2002, p. 126). يظهر هذا في كتابهما الموسوم بـ "العرق، المجتمع المحلي، والصراع" (1967) الذي يتناول دراسة العلاقات بين الأعراق في برمنغهام بإنجلترا التي تمتعت بتوسع اقتصادي كبير بعد الحرب العالمية الثانية. كما يتجلى الأثر الواضح في تأثير مدرسة شيكاغو بأفكارهما حين اعتبرا أن المدينة، خلال تطورها، تصبح متميزة إلى مجتمعات فرعية متميزة منفصلة مكانياً. كل منطقة تظهر بشكل جماعي أنواعاً معينة من الثقافة. مع ذلك، أدخل ريكس ومور بالإضافة إلى باهل Pahl في تحليلهما شيئاً كان مفقوداً تماماً عند علماء الإيكولوجيا في شيكاغو: الدور الحاسم للمؤسسات. تتمثل هذه المؤسسات في: المؤسسات المالية، التي تقرر لمن يتم منحه القروض لشراء المساكن ولمن لا يتم منحه؛ وسلطات الدولة (البيروقراطية)، التي تحدد المتطلبات وتمارس صلاحيات تخصيص المساكن العامة للإيجار. جنباً إلى جنب مع عنصرية مديري كلا المؤسساتين، ينتج عن ذلك آثار الاستقطاب الاجتماعي المكاني. من بين الأمور المركزية لاتجاه ريكس ومور تأكيدهما على أن الانتقال إلى الضواحي هو طموح مشترك بين جميع السكان لذلك يقولان: "إن الحركة الخارجية المستمرة التي تحدث تبرر لنا أن نقول ونضع في صلب نموذجنا أن الإسكان في الضواحي مورد نادر ومطلوب" (Rex, 1968, p. 214). بالنظر إلى هذا، يقترحان أن العملية الأساسية الكامنة وراء التفاعل الاجتماعي الحضري هي الصراع على أنواع الإسكان النادرة والمرغوبة (Lawrence, 1974, p. 74). يفترض هذا الاتفاق الواسع على الرغبة في أنواع معينة من المساكن وندرتهما التمييز بين "طبقات الإسكان" التالية: الطبقة الوسطى العليا، والطبقة العاملة، والطبقة الوسطى الدنيا.

اقترح ريكس ومور أن هذا الصراع على الإسكان يمكن تحليله على أنه صراع طبقي حول توزيع فرص الحياة في المدينة. بعبارة أخرى، مثلما حدثت الصراعات الطبقيّة في عالم العمل فيما يتعلق بتوزيع فرص الحياة، كذلك حدثت أيضاً في مجال استهلاك السكن. إن الصراع على هذا الأساس ليس اضطراراً في الحياة الاجتماعية، بل هو جزء أساسي منها. بل إنه التركيز الأساسي لعلم الاجتماع.

يشير سندرز إلى أهمية دراسة ريكس ومور إلى أنها أكدت على السكن باعتباره مجالاً مهماً ومتميزاً من الناحية التحليلية، تم فيه تحديد فرص حياة الأفراد، فقد وضعوا الاهتمامات النظرية لعلم الاجتماع الحضري بقوة ضمن الاهتمامات التقليدية لعلم الاجتماع السائد مع مصادر عدم المساواة والصراع الطبقي. كما أظهروا كيف تبلور الهيكل المكاني للمدينة مع تنظيمها الاجتماعي من خلال نظام تخصيص المساكن: "يمثل سوق الإسكان، من الناحية التحليلية، نقطة يتقاطع عندها التنظيم الاجتماعي والبنية المكانية للمدينة" (Saunders, 1986, p. 79).

وإذا ما أعدنا استحضار سؤالنا الإشكالي إزاء هذا الاتجاه، فإن مفهوم التنافس يظهر مجدداً، مع أنه وفي نفس الوقت، يقر ريكس بأن العديد من أولئك الذين يعيشون في ظروف سكنية محرومة ظاهرياً لا يطمحون إلى العيش في الضواحي، بالتالي، لا يدخلون ضمن هذا التنافس، وبهذا فقد أزال أسباب الجدل بأن طبقات الإسكان التي حددها تتعارض مع بعضها البعض. وهذا ما يبرر تحويل تركيز ريكس من السكن إلى التركيز على التعليم والتوظيف بالإضافة إلى فرص الإسكان (Saunders, 1986, p. 99). وبالتالي فإن افتراض ريكس ومور المبدئي والذي انطلقا منه لم يكن قابلاً للتعميم.

من جهة أخرى، إذا اعتبرنا أن السياسة الإسكانية تلعب دوراً في توزيع طبقات الإسكان، نكون بصدد الحديث عن متغير مستقل ومتغير تابع. فالسياسيون والمخططون مسؤولون عن هذا التوزيع بشكل مباشر. فنكون هنا بصدد الحديث عن التنظيم البيروقراطي. بعبارة أخرى، إننا بصدد كيان خارج المدينة. لذلك كان علم الاجتماع الخاص بجون ريكس سياسياً، وكان اهتمامه بـ "العرق" أكثر من مجرد كونه أكاديمياً (Jenkins, 2005, p. 202). بهذا نكون بصدد البحث حول الإدارة الحضرية والاستهلاك الجماعي كما ستراه عند مانويل كاستلز.

3-2- مانويل كاستلز والماركسية الجديدة

يعتبر اتجاه كاستلز، المحاولة الرابعة لإيجاد موضوع نظري للمدينة معتمداً على الأفكار الماركسية، في صيغتها الألتوسيرية. من خلال هذا، يمكن تقسيم عمل كاستلز إلى شقين، الأول هدمي، والثاني بنائي.

الأول: يبدأ كاستلز من الافتراض القائل بأن أي علم يجب أن يمتلك معياراً من المعيارين التاليين حتى يكون علمياً بشكل حقيقي وإذا لم يتوفر فيه أحدهما، فإنه "لا وجود له كعلم" وبالتالي يصبح مجرد "أيديولوجيا". (Castells, 1969, p. 171)

- يجب أن يكون ذو "موضوع نظري محدد [أو علمي]؛

- و ذو "موضوع واقعي محدد".

على أساس هذه الصياغة القياسية للعلاقات بين العلم والإيديولوجيا، يجادل كاستلز بأن علم الاجتماع الحضري غير علمي، -وبسبب غياب هذين المعيارين (لأنه يفتقر إلى موضوع واقعي محدد بسبب غياب أي محددات واضحة لمصطلح "حضري" (Castells, 1969, p. 172)، ولأنه يفتقر إلى موضوع نظري [أو علمي] محدد)، ونظراً لأن "الموضوعات التي حاول علم الاجتماع الحضري تاريخياً أن يشكل من خلالها نفسه كعلم" (أي الحضريّة، التحضر والنظام الإيكولوجي) لا تمتلك خصائص التميز النظري، يستنتج كاستلز، بالتالي، أن "علم الاجتماع الحضري هو أيديولوجيا" (Castells, 1969, p. 172).

وبالرغم من ذلك، يرى كاستلز أن نظرية لويس ويرث "أخطر" محاولة لمنح علم الاجتماع الحضري مجالاً نظرياً محددًا (Castells, 1977, p. 77). من خلال الانتقال من تحديد مشكلة محددة من الناحية النظرية (وهي مجموع القوى - التنافس، التكيف...) - ما يسميه كاستلز "موضوعاً نظرياً" - كشرط مسبق لتطوير تفسير علمي لواقع ملموس وهو الفضاء المادي "الموضوع الواقعي". وفي نفس الوقت، يعتبر كاستلز "الثقافة الحضريّة" التي أسس لها ويرث، كما تقدم، ليست مفهوماً ولا نظرية. إنها، بالمعنى الدقيق للكلمة، أسطورة، لأنها تحكي، أيديولوجياً، تاريخ الجنس البشري (Castells, 1977, p. 83). يسأل كاستلز بدلاً من ذلك، لماذا لا يتم قبول مصطلح الثقافة الحضريّة لنظام السلوك المرتبط بالمجتمع الرأسمالي.

وفي حين أن نظرية ويرث ترى أن السمات المكانية للمناطق الحضريّة (كما هي محددة بالحجم والكثافة وعدم التجانس) تحدد، إلى حد كبير، الخصائص الثقافية لسكان المناطق الحضريّة، فإن كاستلز يرى أن المحدد الحقيقي للثقافة الحضريّة ليس الشكل المكاني للمناطق الحضريّة ولكن نمط الإنتاج الذي يقع فيها. في حالة الحضريّة، فإن الرأسمالية وليس الشكل المكاني هو سببها النهائي. من هنا، يتهم كاستلز ويرث بإقامة "علاقة زائفة" بين الخصائص المكانية للمناطق الحضريّة وثقافة سكان الحضر.

الثاني: اعتمد مانويل كاستلز على المادية التاريخية من خلال أربعة مفاهيم رئيسية شكلت جوهر منظوره في علم الاجتماع الحضري، تتمثل هذه المفاهيم في: الاستهلاك الجماعي والتنظيم الحضري والتخطيط الحضري والحركات الاجتماعية الحضريّة. وهي مبنية كما يلي:

الجدول رقم (01): يوضح مفاهيم كاستلز الأساسية ضمن علم الاجتماع الحضري

الاستهلاك الجماعي	يعني معظم الحقائق التي يشير إليها مصطلح "حضري"	علم الاجتماع الحضري
النظام الحضري	النظام الاقتصادي (إنتاج، استهلاك، تبادل) النظام السياسي (التخطيط الحضري، الإدارة) النظام الأيديولوجي	
التخطيط الحضري	من خلال: تصنيف الفاعلين الحضريين (نقابات عمالية، رابطات الأحياء، ...) طبيعة المشاكل التي تولد ضرورة التخطيط الحضري وفي نفس الوقت تقيدها فاعليته.	
الحركات الاجتماعية الحضرية	تندرج ضمن شرطين: يجب أن يكون لها تأثير في إنتاج "تحول بنيوي" في البنية الاجتماعية (النظام الحضري) أنها لا تستطيع إنتاج هذا التأثير إلا إذا كانت مرتبطة بممارسات أو حركات أخرى.	

المصدر: من إعداد المؤلف بناء على مقال: McKEOWN, K. (1980). The Urban Sociology of Manuel Castells: A Critical Examination of the Central Concepts. *The Economic and Social Review*, 11(04).

باختصار، إن كاستلز قد هدم الأساس الفكري لعلم الاجتماع الحضري، وفكرة أنه مجال متميز للبحث مع موضوعه النظري الخاص. ويوضح أن المدينة تتشكل من خلال قوى أكبر: المجتمع الصناعي من ناحية وشبكات الأسرة والصدّاقة من ناحية أخرى (Zukin, 2011, p. 03). ثم في نفس الوقت، أكسب علم الاجتماع الحضري موضوعاً نظرياً، وهو "الاستهلاك الجماعي". وحجته ليست أن الاستهلاك الجماعي هو العملية الحضرية المهمة، بل إنها العملية الحضرية الوحيدة (Castells, 1977, p.455) مركزاً على الوحدات المكانية لهذا الاستهلاك (المدينة)، ومستبعداً كل من العمليات غير الاستهلاكية وعمليات الاستهلاك التي لا تحتوي على عنصر مكاني، لأنه بهذه الطريقة يستطيع التركيز على الحركات القائمة على المدينة الموجهة لقضايا الرفاهية. ومع أن كاستلز يهتم بفناء المدينة، الذي يشبهه بلوحة الشطرنج، إلا أن ما يثير اهتمامه ليس اللوحة، بل القطع، وليس المدينة، بل الصراعات التي تحدث داخلها (Kirby, 1985, pp. 9-10).

تعرض النموذج النظري لكاستلز إلى انتقادات كثيرة، نظرا لقيامه على أسس منهجية جامدة وغير واضحة (Mingione, 1986, p. 141). وأن طرحه غير مقنع، وغير منظم (McKewon, 1980, p. 278). مع ذلك، فإن كاستلز هو أحد المروجين لما تم الكشف عنه في العقود الأخيرة باعتباره موضوعا ناشئا لعلم الاجتماع الحضري، وهو الشيء الذي يمكن أن يبرر بقائه كفرع تخصصي: دراسة الحكامة، وبشكل أكثر تحديدا، الإدارة السياسية للمشاكل الحضرية في التجمعات الحضرية الكبيرة. يظهر هذا في كتابه رفقة جوردي بورجا : « Local and Global The Management of Cities in the Information Age »، سنة 1997.

4-الدراسات المعاصرة في سياق العولمة

من وجهة نظر تجريبية، كما تقول شارون زوكين Sharon Zukin، إذا غطت عمليات التحضر والميتروبوليس وجه جميع المجتمعات، فإن دراسة المدن في حد ذاتها تظهر على أنها غير ضرورية، ومن الناحية المنهجية، إذا كانت المدن تعيد إنتاج تناقضات بنية اجتماعية معينة، فإن دراسة المدن تتطابق بشكل أساسي مع دراسة المجتمع ككل (Zukin, 1980, p. 580). بالإضافة إلى تأكيد كاستلز وبورجا لوجود ظاهرتين أخريين تحددان حقبتنا التاريخية، تشيران إلى احتمال اختفاء المدن كشكل إقليمي للتنظيم الاجتماعي هما: ثورة تكنولوجيا المعلومات وعولمة الاقتصاد والاتصالات (Borja & Castells, 1997, p. 09).

مع ذلك، في الآونة الأخيرة، ظهرت على الساحة الفكرية في المجال الحضري اقتراحات تدعو إلى إعادة تنظيم ثوري لهذا التخصص الفرعي. منها أعمال نيل برونر Neil Bruner وكريستيان شميت Christian Schmidt وساسكيا ساسن Saskia Sassen و أش أمين Ash Amin وغيرهم بالاعتماد على العمل السابق لهنري لوفيفر Henri Lefebvre. على سبيل المثال يؤكد الجغرافي أش أمين أن "الحضري" عابر للإنسان وعابر للمحلي (Amin, 2007, p. 107). بالنسبة لبرونر وشميت لم يعد من الممكن اعتبار المنطقة الحضرية موقعا متميزا ومحدودا نسبيا ؛ بل أصبح بدلاً من ذلك "حالة كوكبية عامة" والتي هي في نفس الوقت اقتصادية واجتماعية (Brenner, 2009, p. 206). أما ساسن فتتظر إلى المدينة كعقدة في شبكة من العمليات العابرة للحدود. إنها واحدة من المساحات العالمية ، وهي تشارك العالمية بشكل مباشر ، وغالبا ما تتجاوز الوطنية (Sassen, 2000, p. 146). ويظهر لنا هذا مدى الطموح لتوسيع نطاق علم الاجتماع الحضري.

ومن خلال مفهوم الحالة الكوكبية العامة عند برونر وشميت فهما يؤكدان على ثلاث نقاط

مهمة هي:

أولا: أهمية فحص مفهوم الحضري بدلاً من مفهوم المدينة.

ثانياً: يتضمن المفهوم فكرة مبتكرة حول التحضر كعملية حدية تتوسع كنوع من "تشتت الشظايا" لتشكيل اتساع الأماكن.

ثالثاً: يحدد المفهوم الحاجة إلى رؤية التحضر بطريقة جديدة أخرى: كتطور متنوع من غير مركز (Wilson & Jonas, 2018, pp. 1576-1577). وبهذا فقد سلط الضوء على الحاجة إلى نظرية معرفية جديدة للمدينة، قادرة على فك رموز جغرافيات التحضر المتغيرة بسرعة في ظل رأسمالية القرن الحادي والعشرين.

وفقاً لهذا التصور، يمثل التحضر عملية عالمية تكون فيها جميع العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية متداخلة، بغض النظر عن الموقع الأرضي (كقرية أو كجزء من المناطق الريفية) وبقطع النظر عن التكوين المورفولوجي (Brenner, 2018, p. 571). لذلك من الناحية المفاهيمية والوجودية لم يعد هناك مجال للحديث عن "خارج" العالم الحضري.

5- ما قيمة علم الاجتماع الحضري؟

بالنظر لما سبق، نتساءل عن قيمة علم الاجتماع الحضري، طالما أنه تشتت وأصبح أكثر تداخلاً مع تخصصات أخرى خاصة العلوم السياسية والجغرافيا والاقتصاد، وما قيمته في ظل المشكلات التي تطرحها المدينة مع التغيرات المستمرة، وفي ظل المدينة المعولمة.

مع ذلك، يؤكد كل من باث بيرى Beth Perry و آلان هاردين Alan Harding، بأن مستقبل علم الاجتماع الحضري مشرق، بسبب الأهمية المستمرة للتأويلات الاجتماعية المتميزة للمناقشات المعاصرة حول التحضر والمدن والعولمة وبسبب الفرص التي يوفرها تعدد التخصصات للجمع بين اهتمامات علم الاجتماع الحضري مع اهتمامات الآخرين (Perry & Harding, 2002, p. 851). إن مرونة هذا التخصص واستمراره، حتى في خضم الهجمات الوجودية التي يتعرض لها، تجعلنا نقف مندهشين. وكما تحذرننا زوكين من علماء الاجتماع الحضري الجدد الذين شككوا في موضوع الدراسة ومع ذلك فقد استمروا في توليد دراسات تحت هذا العنوان (Zukin, 1980, p. 09). والملاحظ في هذه الدراسات أنها تخلت عن مشروع وضع نظرية حول المدينة.

وعلى الرغم من تشتت وتشظي مواضيع علم الاجتماع الحضري، وعدم وجود تقليد تراكمي إلا أن هناك عددًا من الخيوط والموضوعات المتكررة التي يدور حولها هذا التخصص والتي بينها مايك سافج Mike Savage كالتالي (Savage & Warde, 1993, p. 03): ما هو شعور العيش في مدينة "حديثة" لاسيما في عالم مليء بالمخاطر. كيف تتأثر الحياة الحضرية بسمات البنية الاجتماعية المحلية؟ كيف نفسر تاريخ التحضر وتركيز السكان في البلدات والمدن والتجمعات الحضرية؟ ما هي السمات الأساسية للهيكل المكاني للمدن وما إذا كان اختلاف الترتيب المكاني يولد أنماطاً متميزة من التفاعل؟ وأسئلة أخرى لا تقل أهمية. كما يعتقد جون غيلدريلوم John Gilderbloom أن

التركيز الرئيسي لعلم الاجتماع الحضري هو كيفية توزيع الضروريات الأساسية، ومن يقرر هذا التخصيص، وما هو تأثير هذه الخيارات على حياة الفرد. في النهاية، يصبح السؤال الرئيسي لعلم الاجتماع الحضري هو العدالة التوزيعية (Gilderbloom, 1988, p. 445). وبشكل عام، يشير عمل علماء الاجتماع الحضري الجدد إلى أن دراسة المجتمع الحضري تعني دراسة كيف تعزز المدن، وتتوسط، وتوضح تناقضات أنماط معينة من الإنتاج، وعلى الأخص تلك الخاصة بنمط الإنتاج الرأسمالي.

إذا، لا يزال علم الاجتماع الحضري مصدرًا محتملاً للرؤى الجديدة، بشرط استكشاف أسئلة بحثية محددة جيداً ذات أهمية موضوعية. وكما يرى ارنست ماهايم بدلاً من تصوير طريقة الحياة الحضرية على النقيض من الريف، تبدو دراسة الهيمنة الحضرية على المناطق النائية الأقل تحضراً، على سبيل المثال، واحدة من أكثر المشاريع الواعدة. لاستخدام تعبير آخر، علاقة الميتروبول بالإقليم. يعتبر مثل هذا البحث علم اجتماع حضري لأن تركيزه ينصب على المدينة على وجه التحديد، ويمكن أن يربط نفسه بعلم الاجتماع العام.

6- محاولة لإعادة تعريف: وجهة نظر

بعد إثارة ومناقشة معظم المشكلات وتحليل المناقشات الرئيسية داخل هذا التخصص، سندسعى إلى استعادة هوية علم الاجتماع الحضري الموضوعية تحت الشك، وتقديم تعريف لها يكون في نفس الوقت محدوداً وعملياً، رغم أن التعريف المثالي بعيد المنال، وإنما هو مقارنة يمكن أن تتعرض للنقاش. ولتحقيق هذا الهدف، من الضروري أن نخرج على عنصرين:

1. ضرورة الفصل التحليلي للمدينة عن العمليات الاجتماعية العالمية للتنظيم والتغلب على

مقولة "كوكب متحضر بالكامل". بمعنى آخر فإننا نفترض وجود حدود واختلافات بينها وبين طرق أخرى لتنظيم الأفراد ضمن الحيز المكاني.

2. قبول العلاقة المتبادلة، المنظمة والهيكلية في نفس الوقت، بين الحيز الحضري المبني

والعمليات الاجتماعية. فعلم الاجتماع الحضري يجد السبب المنطقي لوجوده في دراسة العمليات الاجتماعية التي تشكل الفضاء المادي للمدينة وفي دراسة الطرق التي يتكيف بها هذا الفضاء مع العلاقات الاجتماعية التي تتطور داخله.

إذا حاولنا صياغة توليفة منطقية لهذين العنصرين، يمكننا تعريف علم الاجتماع الحضري

كالتالي:

- هو العلم الذي يتخصص في دراسة وظائف والنظم الفرعية الاجتماعية الحضرية ضمن النظام الاجتماعي العام وفي دراسة العلاقات بين الفضاء الحضري المبني والمجال الاجتماعي.
- علم الاجتماع الحضري هو التخصص الذي يركز على البعد النظامي والهيكل للمدينة، أي على دور المدن في النظام الاجتماعي؛ ودراسة العلاقة المنهجية بين البنية المكانية والبنية الاجتماعية من خلال تحليل كيف تولّد الهياكل المكانية المختلفة (أو لا تولد) هياكل مختلفة للعلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعي.

خاتمة:

- إن أهم ما نستخلصه من هذا المقال هو ما يلي:
- من الصعب إثبات موضوع نظري خاص بعلم الاجتماع الحضري، لذلك، فإن ما يصرح به السوسيولوجيون النقاد اعتراف بعدم وجود موضوع واضح ودعوة لرسم روابط تجريبية ونظرية واضحة بين المدينة نفسها والمشاكل التي تنشأ داخلها. ولعل هذا راجع إلى تعامل علم الاجتماع الحضري مع موضوع كلي، هذا الأمر هو ما جعل غيدنز يجادل بأن علم الاجتماع الحضري يشكل النواة المركزية لعلم الاجتماع.
- إن التأثير الذي أحدثته العولمة على علم الاجتماع الحضري واضح، إذ أن جوهر المدينة بحسب التحليلات السوسيولوجية إنما جاء من خلال التفرقة بينها وبين الريف واستخلاص خصائص خاصة بها فحسب، إلا أن العولمة، بحسب المنظرين المعاصرين جعلت هذه الحدود تتلاشى، بل تلاشت حتى بين الدول. وبالتالي فإن خصائص المدينة ستنتقل بالضرورة إلى الريف، بل ستكون خصائص المدينة عالمية.
- وجود غموض فيما يتعلق بالحدود الفاصلة بين علم الاجتماع الحضري والدراسات الحضرية والدراسات الاجتماعية بشكل أعم. كما نلاحظ أنه على الرغم من أن هؤلاء الباحثين اهتموا أكثر منذ البداية بدراسة الجوانب المرتبطة بالديستوبيا لنمو المدينة في شكل اقضاء وعنف وصراعات طبقية. مؤخراً، أصبحت دراسات المدينة الموجهة نحو السياسات سمة مميزة للدراسات الحضرية. في هذه الرحلة التاريخية، رأينا أن أول عالم اجتماع حضري عظيم خرج من هذا القفص المعرفي كان كاستلنز.
- إن أزمة علم الاجتماع الحضري هي أزمة نظرية بالأساس، أزمة إثبات وجود، وصراع من أجل البقاء. إذا كتبنا عن الكيفية التي يعيش بها الناس في المدن، فإننا لا نصف "التمدن كأسلوب حياة" وإنما الفقر والحدأة والعرق والطبقة والأسرة. وهذا ما تؤكدته شارون

زوكين وكاستلز وغانز وغيرهم. فالملاحظ في هذه المتغيرات أو المواضيع التي كانت محل بحث تعتبر مواضيع سياقية. بمعنى أن علم الاجتماع الحضري جاء ضمن منطوق براغماتي والسياق التاريخي الذي تضمن الحداثة والتغيرات الديموغرافية والتكنولوجيا والاقتصادية، أنتج المدينة بمفهومها وتعريفها وشكلها الحديث، بذلك تعددت القضايا التي ظهرت للواجهة واستدعت التحقيق والبحث الحضري، والدليل على هذا هو استبدال موضوع الهجرة التي تعتبرها زوكين الورقة الرابعة لمدرسة شيكاغو بموضوع العرق، لأنه الأكثر وضوحاً في الواجهة.

- ضرورة فتح المجال للتظهير بشكل أوسع من أجل الحفاظ على هوية علم الاجتماع الحضري، تماشياً مع مقتضيات العصر، بدلاً من إعادة إنتاج المفاهيم والنظريات التي تناسب سياقات تاريخية معينة.

قائمة المراجع

1. Amin, A. (2007). Re-thinking the urban social. *City: analysis of urban trends, culture, theory, policy, action, City, 11(01)*.
2. Association, A. P. (2011). *APA Style*. Récupéré sur <http://www.apastyle.org>.
3. Borja , J., & Castells, M. (1997). *Local and Global The Management of Cities in the Information Age*. London: United Nations Centers for Human Settlements.
4. Brenner, N. (2009). What is critical urban theory? *City: analysis of urban trends, culture, theory, policy, action, 13(2-3)*.
5. Brenner, N. (2018). Debating planetary urbanization: For an engaged pluralism. *Environment and Planning D: Society and Spac, 36(03)*.
6. Castells, M. (1969). Théorie et idéologie en sociologie urbaine. *Sociologie et sociétés, 01(02)*.
7. Castells, M. (1976). *Theory and ideology in urban sociology*. Pickvance, C . G . (ed.). *Urban Sociology: Critical Essays*. London: Tavistock Publications.
8. Castells, M. (1977). *The Urban Question A Marxist Approach* (éd. Second Edition). (A. Sheridan, Trad.) Edward Arnold.
9. Castells, M. (2006). *Problemas De Investigacion En Sociologia Urbana* (éd. decimoséptima). Mexico.
10. D Boy, J. (2021). The metropolis and the life of spirit' by Georg Simmel: A new translation. *Journal of Classical Sociology, 21(02)*.
11. Dewey, R. (1960). The Rural-Urban Continuum: Real but Relatively Unimportant. *American Journal of Sociology, 66(01)*.

12. Duncan, O., & Schnore, L. (1959). Cultural Behavioral, and Ecological Perspectives in the Study of Social Organization. *American Journal of Sociology*, 65(02).
13. Edgerto, R. (1992). *Sick Societies, Challenging the Myth of Primitive Harmony*. Toronto, Canada: The Free Press.
14. Gilderbloom, J. (1988). Is Urban Sociology Dying? *Teaching Sociology*, 16(04).
15. Glass, R. (1955). Urban Sociology in Great Britain: A Trend Report. *Current Sociology*, 04(04).
16. Gottdiener, M., & Hutchison, R. (2011). *The New Urban Sociology* (éd. Forth Edition). USA: Westview Press.
17. Grafmeyer, Y., & Authier, J.-Y. (2015). *Sociologie Urbaine* (éd. 4th Edition). Paris: Armand Colin.
18. Gross, M., & Maut, R. (2015). *Renewable Energies*. (Routledge, Éd.) UK: sunrise setting ltd.
19. Hawley, A. (1981). Human Ecology Persistence and Change. *American Behavioral Scientist*, 24(03).
20. Herbert, D. (1967). Social Area Analysis: a British Study. *Urban Studies*, 04(01).
21. Hollingshead, A. (1941). Social Ecology: A Critical Analysis. Milla Aissa Alihan. *American Journal of Sociology*, 46(06).
22. Hutchison, R. (2010). *Encyclopedia of Urban Studies*. (I. SAGE Publications, Éd.) California.
23. J. Blasi, A. (2005). *Diverse Histories of American Sociology*. Boston: Leiden: Brill.
24. J. David, L., & L. Smith, R. (1980). *American Sociology and Pragmatism: Mead, Chicago Sociology, and Symbolic Interaction*. Chicago: The University of Chicago Press.
25. James, J. (1948). A Critique of Firey's Land Use in Central Boston. *American Journal of Sociology*, 54(3).
26. Jenkins, R. (2005). The place of theory: John Rex's contribution to the sociological study of Ethnicity and 'race'. *Ethnic and Racial Studies*, 28(02).
27. Karp, D. A., & al. (2015). *Being Urban: A Sociology of City Life* (éd. 3rd Edition). California: Praeger.
28. Kirby, A. (1985). Pseudo-random thoughts on space, scale and ideology in political. *Political Geography Quarterly*, 4.
29. Lawrence, D. (1974). *Black Migrants: White Natives* (éd. First Edition). London: Cambridge University Press.
30. Lord, I. (2011). *Gestionnaires inspirants : les 10 règles de communication des leaders*. Montréal, Québec: Éditions Logiques.

31. Manheim, E. (1960). Theoretical Prospects of Urban Sociology in an Urbanized Society. *American Journal of Sociology*, 66(03).
32. Marshall, G. (2002). *In Praise Of Sociology* (éd. Second Edition). London: The Academic Division of Unwin Hyman Ltd.
33. Martindale, D. (1958). *Prefatory Remarks: the Theory of the City, in Max Weber*. nueva york: The Free Press.
34. McKEOWN, K. (1980). The Urban Sociology of Manuel Castells: A Critical Examination of the Central Concepts. *The Economic and Social Review*, 11(04).
35. Mellor, J. (2007). *Urban Sociology In An Urbanized Society*. Britain: Routledge Library Editions.
36. Merkling, J. e. (2010). *Psychologie, sociologie, anthropologie*. Récupéré sur books.google.fr/books?id=j1ilcF5JwcC&printsec=frontcover&dq=2010+sociologie&hl=fr&ei=L5dKTomqH4.
37. Mingione, E. (1986). Urban Sociology Beyond The Theoretical Debate Of The Seventies. *International Sociology*, 01(02).
38. Pahl, R. (1968). *Readings in Urban Sociology*. UK: Pergamon Press.
39. Park, R., & Burgess, W. (1967). *The city: suggestions for investigation of human behavior in the urban environment*. Chicago: University of Chicago Press.
40. Perry, B., & Harding, A. (2002). The Future of Urban Sociology: Report of Joint Sessions of the British and American Sociological Associations. *International Journal of Urban and Regional Research*, 26.
41. Rex, J. (1968). 'The sociology of a zone of transition', in R.Pahl, *Readings in Urban*.
42. Sassen, S. (2000). New frontiers facing urban sociology at the Millennium. *British Journal of Sociology*, 51(01).
43. Saunders, P. (1986). *Social Theory and the Urban Question* (éd. Second Edition). (R. T. Group, Éd.) London.
44. Savage, M., & Warde, A. (1993). *Urban Sociology, Capitalism and Modernity*. London: Red Globe Press.
45. Tomeh, A. (1967). Informal Participation in a Metropolitan Communit. *The Sociological Quarterly*, 08(01).
46. Wilson, D., & Jonas, A. (2018). Planetary urbanization: new perspectives on the debate, Planetary urbanization: new perspectives on the debat. *Urban Geography*, 39(10).
47. Wirth, L. (1938). Urbanism as a Way of Life. *The American Journal of Sociology*, 44(01).
48. Wirth, L. (1945). Human Ecology. *American Journal of Sociology*, 50(06).

49. Zukin, S. (1980). A Decade of the New Urban Sociology. *Theory and Society*, 09(04).
50. Zukin, S. (2011). Is There An Urban Sociology? Questions on a Field and a Vision. *Sociologica*, Fascicolo 3.